# مَفْهُومُ الْحِكْمَةِ
# في ضوء القواعد الأصوليّة

محمد شريف أحمد*

## مقدمة:

منذ مدة تستوقفني كلمة الحكمة التي تأتي مقرونة بالكتاب الكريم، معطوفة عليه في أكثر من عشر آيات بيّنات كما تأتي منفردة في عديد من آيات القرآن الكريم، فأتأمل فيها وأتدبّر في مراميها: من هذه الآيات:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:129).

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:151).

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة:2).

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (البقرة:231).

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:269).

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (النساء:113).

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (الأحزاب:34).

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل:125).

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ (الإسراء:39).

---

* أستاذ مشارك، جامعة آل البيت، الأردن.

وما كنت أقتنع بكثير من المعاني التي ذكرها علماء التفسير واللغة. منها النبوّة فإن الحكمة بهذا المعنى لا تكون موضوعاً للتعلم، بل هي موهبة إلهية ولا يستقيم هذا في كثير من المواضع كما سيظهر. وكنت أستبعد أن يكون المقصود الكتاب نفسه مع أنّ الكتاب كله حكمة بمعنى أنه قد أحكمت آياته، وحياً من الحكيم العلام. ذلك أن العطف يقتضي المغايرة وأن التأسيس أولى من التأكيد. ومما يؤيد المغايرة أن القرآن الكريم خصّ بعض آياته بالحكمة كما جاء في سورة الإسراء في فذلكة بعض الأحكام القرآنية التي ترسم للإنسان المثل العليا في الاعتقاد والسيرة الفاضلة. ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ﴾ (الإسراء:39). فالحكمة غير الكتاب والكتابُ غير الحكمة وإن تطابقا في الجملة واقعاً وماصدقا.

والواقع أن العلاقة بينهما عموم وخصوص من وجه، ذلك أن من الأحكام الدينية ما لا يدرك بالعقل فيصعب شموله بالحكمة التي تخص ما يدرك من جهة العقل فالأحكام الغيبية؛ ومنها قصص الأنبياء مما لا يكون لها شاهد من الآثار، لا تدرك بالعقل بل تدرك بالوحي والكتاب. والحكمة أيضاً أعمّ من وجه؛ ذلك أن الكتاب قد لا يشتمل على بعض الأمور التي تفيد كمال النفس علماً وعملاً وهو ما تشتمل عليه الحكمة كما بيّن ذلك العلامة عبد الحكيم السيالكوتي.[1]

وأما أن يكون المراد بالحكمة السنة النبوية، كما قال الإمام الشافعي، فهو الأقرب إلى الصواب والأحق بالقبول لأنها وظيفة الرسول الكريم ﷺ كالبيان ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (البقرة:151).

ولكني أرى أنها لا تستقيم في كثير من المواضع التي وردت فيها الحكمة مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل:125). أو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (الأحزاب:34). فلابد أن يكون المراد بالحكمة شيئاً آخر متميزاً من الكلام أو المواقف بأن تشمل مثلاً كل كلام أو موقف يدرك العقل السليم أنه مما يستجيب للطبيعة الإنسانيّة السويّة المهتدية بنور الإيمان. ويقصد بالعقل هنا النور الذي أودعه الله في الإنسان ليلتمس طريقه، ويؤدّي أمانته، ويتحمل مسؤوليّة فعله ووعيه. وهو موقف يمكن تلمسه

---

[1] انظر **حاشية العلامة عبد الحكيم السيالكوتي على تفسير البيضاوي** (كويتة/باكستان: مكتبة إسلاميّة، ميدان ماركيت، د. ت)، ج1، ص461.

واتخاذه بالوعي الرشيد؛ وإن لم يـأتِ بـه الوحـي (الكتـاب). وبعبـارة أخـرى يوحـي مفهوم الحكمة ببعد عقلي محكم ليس بينـه وبـين الفطـرة الإنسـانيّة السـويّة حـاجز أو هكذا أظن.

وحين كنت أتوقف هنا، كانت تجول في خاطري، وتنقدح في نفسـي فكـرة مفادهـا: أنّ الحكمة هي جديرة بأن تكون الأصل الثـاني في مرجعيّـة الفقـه والسـلوك الإسـلاميين. ومع أن الحكمة الحقيقية هي تعاليم الرسول الكريـم ﷺ أعـني بهـا السـنة المطهـرة، ولكـن السنة النبوية أعم من ناحية أنها تشمل السـنة الـتي تبـين هيئـات الصـلاة ومقـادير الزكـاة، وآيات الله مثلاً. ولا تختلف السنة هنا عن الوحي، لأنها جـزء منـه وامتـداد لـه. وحينمـا تتوجّه، أي السنة، إلى كليات العمل، وعلم منهج السلوك والتفكير فإنها تضع الأمّـة أمـام شرعة تستضيء بها في حاضرها، ومستقبلها، ومنهـا نترسّـم خطـى الحكمـة في التصـرف قضاءً أو سلوكاً كما هو الحال مثلاً في قولـه ﷺ: "لا ضـرر ولا ضـرار"،[2] و"مـن حسـن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"،[3] و"الدين النصيحة"،[4] و"إنما الأعمال بالنيات".[5]

وعلى هذا يكون المراد بالحكمة إن أمكن تفسيرها بالسنة، ذلك النـوع مـن السـنة النبوية التي تنبه العقول إلى ما فيه صلاح الفرد والمجتمع، وتعلمهـا المنهـاج المسـتقيم في العمل والتصرف فالحكمة النبوية إما سنة مبينة للكتاب، أو سنة مبينة للحياة. وعندمـا تكون بياناً للكتاب الكريم تكون جزءاً من الوحي حكماً. وعندما تكـون سـنة مبينـة للحياة مستقلة، تصبح مناراً للاجتهاد؛ في ضوئها تعلاج مشكلات الحياة المستجدة.

لكل هذه الخواطر كنت أتساءل لماذا لم يفـرد للحكمـة بحـث خـاص لهـا في علـم أصول الفقه؟ أو لماذا لم ينظر إلى السنّة النبويّـة علـى أنهـا هـي الحكمـة في مبـاحثهم؟ أليست الحكمة التي وردت بشأنها آيـات محكمـة أجـدر بالاعتمـاد مـن الاستحسـان الذي حاروا في تأصيله، وما رضي به بعض كبار الأئمة؟

لهذا رأيت أن أستهل هذه الدراسة بالإجابة عن الأسئلة التي تثار في هذا الموضـوع

---

[2] رواه ابن ماجة، **سنن ابن ماجة**، كتاب الأحكام.

[3] رواه الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب الزهد.

[4] رواه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب "قول النبي ﷺ: الدين النصيحة".

[5] رواه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب بدء الوحي.

تمهيداً لتوسيع مجالات الرؤية فيها وهي:

ما الحكمة؟ وماذا قال المفسرون عنها؟ وما هو رأينا فيها؟

ما موقف المتكلمين والحكماء تجاهها؟

ما الحكمة عند الأصوليين؟

## أولاً: الحكمة لغةً، وبيان موقف المفسرين منها، ورأينا فيها:

### أ. الحكمة في اللغة:

جاء في القاموس المحيط ومجمل اللغة لابن فارس: الحِكْمَةُ بالكسر العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل. أحكمه أتقنه فاستحكم ومنعه من الفساد، والحكمة من الحكم بمعنى المنع لأنها تمنع صاحبها من الجهل.[6]

وجاء في لسان العرب: الحكمة معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. وفي الحديث الشريف "إن من الشعر لحكمة"، أي كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه. وهي بمعنى العلم والفقه.[7]

وفي التعريفات للسيد الشريف الجرجاني: "الحكمة في اللغة العلم مع العمل".[8]

ومما يروي عن ابن دريد أن كل كلمة وعظتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة".

### ب. الحكمة في آراء المفسرين:

1. قال المفسر الكبير ابن عطية عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:269).

"اختلف الناس في الحكمة في هذا الموضع: فقال السدي: "الحكمة النبوة"، وقال ابن عباس: "هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه، وعربيته".

وقال قتادة: "الحكمة الفقه في القرآن، وقاله مجاهد، وقال مجاهد أيضاً الحكمة

---

6 انظر الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، (بيروت: دار الفكر، 1403هـ/1983م)، ج4، ص98.

7 ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، د. ت)، ج12، ص140-141.

8 الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1405هـ/1985م)، ص123.

الإصابة في القول والفعل... قال مالك: "...الحكمة المعرفة في الدين والفقه فيه والانتفاع به". وقيل هي الفهم والورع والخشية... وهذه الأقوال ــ ما عدا القول بأنها النبوة ـ قريب بعضها من بعض، لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهي الإتقان في عمل أو قول. وكتاب الله حكمة وسنة نبيه حكمة وكل ما ذكر فهو جزء من الحكمة التي هي الجنس.[9] عن ابن مسعود مرفوعاً: "رأس الحكمة مخافة الله".[10]

وواضح أن ابن عطية يرى أن مفهوم الحكمة أمر كلي مفاده الإتقان وتناسبها في هذا الموضع أعني الآية المشار إليها بهذه المعاني حسب نسبتها إلى الرواة ولا تستقيم هذه المعاني في غالب الآيات الأخرى التي وردت فيها كلمة الحكمة.

2. لقد توسع الإمام الرازي في بيان معاني الحكمة وأفاض في بيان مفهومها الفلسفي فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:129): "واعلم أن الحكمة هي الإصابة في القول والعمل ولا يسمى حكيماً إلاّ من اجتمع له الأمران وقيل أصلها من أحكمت الشيء أي رددته فكأن الحكمة هي التي ترد عن الجهل والخطأ، وذلك إنما يكون بما ذكرنا من الإصابة في القول أو الفعل ووضع كل شيء موضعه".[11]

وفي الموضع نفسه قال الرازي: "اختلف المفسرون في المراد بالحكمة ههنا على وجوه: **أحدها**: قال ابن وهب قلت لمالك ما الحكمة؟ قال معرفة الدين والفقه فيه والاتباع له. **ثانيها**: قال الشافعي الحكمة هي سنة رسول الله ﷺ وهو قول قتادة. قال أصحاب الشافعي: والدليل عليه، إنه تعالى ذكر تلاوة الكتاب أولاً، وتعليمه ثانياً ثم عطف عليه الحكمة فيجب أن يكون المراد شيئاً خارجاً عن الكتاب وليس ذلك إلاّ سنة الرسول ﷺ... **وثالثها**: الحكمة هي الفصل بين الحق والباطل. وهو مصدر بمعنى الحكم كالقعدة والجلسة. يعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم، وفصل أقضيتك

---

9 ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق أحمد صادق الملاح، (بدون تاريخ ولا ناشر)، ج2، ص251–252.

10 انظر ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق حسين بن إبراهيم زهران، (بيروت: دار الكتب العلمية، ب. ت)، ج1، ص480–481.

11 الرازي، **التفسير الكبير**، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1405هـ/1985م)، ج4، ص73.

وأحكامك التي تعلمه إياها... (ورابعها): ويعلمهم الكتاب أي يعلمهم ما فيه من الأحكام (والحكمة) أراد بها أنه يعلمهم حكمة تلك الشرائع وما فيها من وجوه المصالح والمنافع".[12]

وليس للرازي في معنى الحكمة هنا شيء جديد ولكنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:269) ذكر مسائل: منها المسألة الأولى المراد من الحكمة إما العلم و إما فعل الصواب ويروى عن مقاتل أنه قال: تفسير الحكمة في القرآن على أربعة وجوه أحدها، مواعظ القرآن قال في البقرة: ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ (البقرة:231) يعني مواعظ القرآن، وثانيها: الحكمة بمعنى الفهم والعلم. ومنه قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (مريم:12)، وفي لقمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ (لقمان:12) يعني الفهم والعلم. وثالثها: الحكمة بمعنى النبوة في سورة النساء: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (النساء:54) يعني النبوة. وفي سورة ص: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (ص:20)، يعني النبوة. وفي البقرة: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (البقرة:251)، ورابعها: القرآن بما فيه من عجائب الأسرار في سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل:125). وفي هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:269).[13]

ودفعاً لما يتوهم من أن الحكمة هي لفظ مشترك عقّب الإمام الرازي على هذه الوجوه بقوله: "وجميع هذه الوجوه عند التحقيق يرجع إلى العلم".[14] والحقيقة أن الإمام الرازي يتجه بمنطقه الفلسفي إلى أن الحكمة لا تخرج عن العلم أو فعل الصواب ذلك إن الإنسان يسعى كأي موجود إلى الكمال في الغاية التي تخصه"[15] وكمال الإنسان في شيئين: "أن يعرف الحق لذاته وأن يعرف الخير لأجل العمل به، والأول

---

12 الرازي، **التفسير الكبير**، ج4، ص73.

13 الرازي، **التفسير الكبير**، ج7، ص73.

14 نفس المرجع السابق، ج7، ص73.

15 ابن رشد، **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**، تحقيق مصطفى عبد الواحد عمران، (القاهرة: المكتبة المحمودية التجارية، ط3، 1388هـ/ 1968م)، ص13.

هو العلم والثاني هو فعل العدل".[16]

3. قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:129): "الحكمة ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام".[17]

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة:269). قال الحكمة تحقيق العلم وإتقان العمل.[18] وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ (النحل:125) ذكر أن الحكمة هي المقالة المحكمة، وهي الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة.[19] وفي حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: "للمفسرين في تفسير الحكمة أقوال متضاربة يجمعها الكتاب والسنة فقيل هي السنة وقيل هي الكتاب وقيل الفقه في الدين وقيل العلم والعمل وقيل كل صواب من القول أورث صحيحاً من العمل.

4. قال الإمام المفسر الآلوسي نقلاً عن البحر: "إن في الحكمة تسعة وعشرين قولاً لأهل العلم قريب بعضها من بعض وعد بعضهم الأكثر منها اصطلاحاً واقتصاراً على ما رآه القائل فرداً مهما من الحكمة. أما السرّ في التعبير عن القرآن بالآيات تارة وبالكتاب والحكمة أخرى فهو أنه رمز إلى أنه بوصف كل عنوان نعمة على حده. وقال: المراد بتعليم الحكمة الإيقاف على الأسرار المخبوءة في خزائن كلام الله.[20]

5. وفي تفسير العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور لمعنى الحكمة في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ جاء: "الحكمة إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم وهي مشتقة من الحكم وهو المنع لأنها تمنع صاحبها من الغلط والضلال... ومن يشاء الله إيتاءه الحكمة هو الذي يخلقه مستعداً إلى ذلك من سلامة عقله، واعتدال قواه حتى يكون قابلاً لفهم الحقائق منقاداً إلى الحق وإذ لاح له لا يصده عن ذلك هوى ولا عصبية

---

16 **تفسير الإمام الرازي**، مرجع سابق، ج7، ص67-68.

17 البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (بيروت: دار الفكر، ب. ت)، ص27.

18 نفس المرجع، ص62.

19 نفس المرجع، ص396.

20 الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط4، 1405هـ/ 1985م)، ج3، ص41.

ولا مكابرة ولا أنفة... وفسرت الحكمة بأنها معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بما تبلغه الطاقة. أي بحيث لا تلتبس الحقائق المتشابهة بعضها مع بعض ولا يغلط في العلل والأسباب".[21] وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ قال: الحكمة هي المعرفة المحكمة أي الصائبة المجرّدة عن الخطأ، فلا تطلق الحكمة إلاّ على المعرفة الخالصة من شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم الناس وتهذيبهم. لذلك عرّفوا الحكمة بأنها معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية.[22]

6. أما أستاذنا العلامة الشيخ عبد الكريم المدرس[23] أطال الله بقاءه فقد فسر الحكمة بالمعرفة في الدين ونبه إلى أنها في عرف أهل الدين تعني القيام بالأمور على ما ينبغي علماً وعملاً، هذه هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:269).

ومع ما يظهر من الاضطراب من تحديد معنى الحكمة بمفهوم يستقيم مع جميع مواردها فإن الغالب منهم يربط بين الحكمة وإتقان العلم والعمل وقد حاول ابن عاشور عند تفسيره لآية: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾. أن يأتي بمعنى جامع مستقيم لجميع مواضعها فقال: "اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم إصلاحاً مستمراً لا يتغير". ولكن المحاولة غير موفقة كما أرى لأن الحكمة أعم فهي تشمل أيضاً النهج القويم، والموقف الحكيم وهما ليس بكلام أو علم.

### ج. رأينا في الحكمة:

والذي أميل إليه أن تخص الحكمة فضلاً عن معناها الشائع أي إتقان العلم والعمل بالقرار العقلاني العادل المستجيب للضمير الإنساني سواء كان شريعة أو نصيحة أو موقفاً أو الكتاب فهو أعمّ إذ يشمل العقائد الإيمانية التي قد لا يدرك بعضها الإنسان بعقله فلا بُدّ من اللطف الإلهي بالهداية كما يشمل القصص التي لا يصل علم الإنسان إليها دون النقل والتوثيق فليس في مكنة الإنسان معرفتها بالعقل، فلا بُدّ من التلقي

---

21 محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م)، ج3، ص62.

22 محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج14، ص327.

23 الشيخ عبد الكريم المدرس، **مواهب الرحمن في تفسير القرآن** (بغداد: دار الحرية للطباعة، ط1، 1406هـ/ 1986م)، ج2، ص108.

هنا دون الحكمة التي تحصل بالتعقل وبالإلهام الفطري فالحكمة تكسب بالعقل وبالفطرة كما تُعلّم بالوحي أما الكتاب فطريقه الوحي.

والذي أبتغيه هنا أن أحث الباحث القارئ على التركيز فيما أريد الوصول إليه ومعاونتي فيه إن وجد فيه الحكمة، وهو أن الحكمة هي من شريعة الله، مبادؤها مستمدة من الكتاب، ومسطورة من السنة المطهرة، ومنقوشة في الفطرة الإنسانيّة السويّة وهي الأحكام التي يصدقها العقل ويشهد بصحتها.

وإذا شاركني القارئ في تأمل وتدبر آيات الحكمة في القرآن الكريم وأعني بها على سبيل المثال الآيات الكريمة من الآية 22 في سورة الإسراء: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ إلى الآية الكريمة 37 منها ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾، وتوقفنا معاً عند التعقيب الإلهي على هذه الآيات بقوله سبحانه جل شأنه: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ﴾ (الإسراء:39) لاقتربنا معاً نحو الفهم المنشود، ولمسنا موقعاً للحكمة في القرآن الكريم، يتميّز عن آيات الله بكونها متناغمة مع النسق العقليّ الفطريّ الإنسانيّ السويّ، وليس بينها وبينه ما يحول دون القبول والإيمان بها. ومن هنا لا أؤيد ما ذكره المفسر الكبير الإمام الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (الأحزاب:34) من أنها القرآن والحكمة أي كلمات النبي عليه السلام،[24] بل الأصح حسب رأيي – وهو الأوفق لمعنى التلاوة – أن آيات الله والحكمة معاً تعني القرآن الكريم ذلك أن القرآن الكريم آيات معجزات، وحكم باهرات. ومعلوم أن المتلو هو القرآن وليس كلام النبي ﷺ بأي حال. والغريب أن هذا الفهم الذي أحث عليه لم يكن غريباً على أستاذ التفسير الكبير، وإمام معقوله ومنقوله، الإمام الرازي إذ وقف عند هذه الآيات وقال: "هي في جملتها تتضمن خمسة وعشرين نوعاً من التكاليف منها ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ (الإسراء:39)، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء:23)، ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ (الإسراء:26)، ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (الإسراء:26)، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء:29)، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا

---

24 الرازي، **التفسير الكبير**، ج25، ص211.

أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ (الإسراء:31)، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الإسراء:33)، وغيرها.

ثم علّق الإمام الرازي على تخصيص هذه التكاليف بالحكمة تعليقاً يفهم منه المعنى الذي ندعو إليه إذ قال: "وسماها حكمة لوجوه أحدها؛ إن حاصلها يرجع إلى الأمر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، والعقول تدل على صحتها، فالآتي بمثل هذه الشريعة لا يكون داعياً إلى دين الشيطان بل الفطرة الأصلية تشهد بأنه يكون داعياً إلى دين الرحمن". وإذا وقفنا عند قوله "والعقول تدل على صحتها". نرى بوضوح أن الحكمة عند الرازي تعني ما يصدقه العقل، ويشهد بصحته. ويزداد هذا المعنى وضوحاً حين يذكر الوجه الثاني لتسمية الحكمة فيقول: "وثانيها؛ أن الأحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان والملل ولا تقبل النسخ والإبطال فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار".[25]

وللعلامة الزمخشري رأي قريب من هذا إذ قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ﴾ (الإسراء:39): "وسماه حكمة لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد".[26] والحكمة عند المعتزلة هي قوة الفهم ووضع الدلائل.[27]

وعلى هذا تكون الحكمة شريعة عقلية متسقة مع فطرة الإنسان وضميره في كل زمان ومكان، وهي توحيد خالص، وخلق إنسانيّ رفيع، وقضاء عادل، هو السر في كرامة الإنسان وسموه. وأرى أن العلامة الراغب الأصفهاني أماط اللثام عن هذه الحقيقة إذ قال: "وقد أفرد ذكرها أي الحكمة في عامة القرآن عن الكتاب فجعل الكتاب رسماً لما لا يدرك إلاّ من جهة النبوات والحكمة لما يدرك من جهة العقل وجعلا منزلين وإن كان إنزالهما من الله تعالى قد يكون مختلفاً وجمع بينهما في الذكر لحاجة كل منهما إلى الآخر فقد قيل لولا الكتاب لأصبح العقل حائراً ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب".[28]

وواضح أن البيئة التي تعيش فيها كلمة الحكمة عند استعمالها في مواضع مختلفة من القرآن توحي بمعاني الحق والعدالة المحسوسة بالفطرة الإنسانيّة السويّة والمدركة بالعقل

---

25 **التفسير الكبير للرازي**، مرجع سابق، ج20، ص214.

26 الزمخشري، **الكشاف**، (بيروت: دار المعرفة، د. ت)، ج2، ص450.

27 الرازي، **التفسير الكبير**، ج7، ص74.

28 انظر الراغب الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، ص84.

الواعي المستكمل بالفضائل.

وقد فصّل في هذا أحد كبار المفسرين في العصر سماحة آية الله العظمى السيد عبد الأعلى البرزواري في تفسيره الجامع: **مواهب الرحمن في تفسير القرآن** عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ فقال: "وإذ تتبعنا الموارد التي ذكر فيها الحكمة في القرآن الكريم سنرى أنها تذكر تارة مقرونة مع الكتاب قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (البقرة:129) وأخرى بعد جملة من الأحكام الشريعة التي نزلت لتهذيب الإنسان وسوقه إلى الكمال والسعادة كما في سورة الإسراء قال تعالى بعد سرد جملة كثيرة من التكاليف الإلهيّة والأحكام الفطريّة: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ﴾ (الإسراء:39). ويستفاد من ذلك أن الحكمة هي تلك المطالب الحقة التي ترتسم في النفس، وتوجب التوفيق بين الاعتقاد والعمل والسوق إلى الكمال المنشود للإنسان فتشمل جميع الحقائق الفطريّة والأحكام الشرعيّة والمعارف الحقة التي تتعلق بالمبدأ والمعاد، وتشرح الحقائق المتعلقة بالنظام الأحسن من حيث ارتباطه بسعادة الإنسان والتي لا تقبل الكذب والبطلان".[29]

وفي موضع آخر قال البرزواري:[30] "ولكن المستفاد من الآيات الشريفة التي ذكر فيها هذا اللفظ أنها معرفة ظاهر الشريعة وباطنها، والمعارف العالية من التوحيد، والنبوة، والأخلاق الفضلى، ومعرفة المصالح والحكم المبتنى عليها دين الله عز وجلّ فإن بها تصفو النفوس، وتصل إلى الكمال المطلوب، وتتصف بالأخلاق الفاضلة". ولكني أرى أن الحكمة تختص بالأحكام الإيمانيّة والخلقيّة والاجتماعيّة التي ينجذب إليها الإنسان؛ ويقبلها بفطرته السويّة. فهي لا تعم جميع ما في الكتاب من الأحكام الدينيّة أو القصص التاريخيّة إلاّ بقدر كبير من التكلف.

ويتبين لي أن الحكمة وصف كمال في الإنسان يقوده نحو الخير والسعادة، به يتغلب على قوى النفس والإرادة. وقد تطلق على ثمرته. وهذا هو المقصود (والله أعلم) من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ (لقمان:12). ذلك أن لقمان لم يسلك سبيل الإيمان والفضيلة بالنبوة بل بالحكمة. وأن نصائحه لابنه هي عين الحكمة

---

29 البرزواري، **مواهب الرحمن في تفسير القرآن**، (النجف: 1986م)، ج4، ص384.

30 المصدر السابق، ج4، ص45.

وليست من النبوة بالضرورة. وفي هذه الآية إشارة ـ كما قال الإمام الرازي ـ[31] إلى أن اتباع النبي ﷺ لازم فيما لا يعقل معناه إظهاراً للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة بل يدرك العقل معناه. وما جاء به النبي ﷺ مدرك بالحكمة. فالحكمة مجالها العقل الحصيف وتعني هنا كما قال الإمام الرازي: "توفيق العمل بالعلم فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة... فالإنسان إذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر، فإن اشتغل بالأهم كان عمله موافقاً لعلمه، وكان حكمة. وإن أهمل الأهم كان مخالفاً للعلم، و لم يكن من الحكمة في شيء".[32]

فالحكمة حالة علمية تظهر في سلوك الإنسان السويّ، وكلماته الجامعة، وتصرفاته الرشيدة، وقدرته على بلوغ حقائق الأشياء قدر الطاقة. فتجمع بين العلم والعمل وبين المنطق والتصرف وهي حالة مخلوقة في الإنسان قابلة للاكتساب والتعلم بعد الاستعداد لها. وقد ذكر العلامة صدر الشريعة:[33] إن الخالق تعالى وتقدس قد ركّب في الإنسان ثلاث قوى: إحداها؛ مبدأ إدراك الحقائق والسوق إلى النظر في العواقب، والتمييز بين الصالح والفاسد. ويعبّر عنها بالقوة العقليّة والنطقيّة والنفس المطمئنة والملكيّة. والثانيّة؛ مبدأ جذب المنافع وطلب الملاذ من المآكل والمشارب وغير ذلك. وتسمى القوى الشهوانيّة والبهيميّة والنفس الأمارة. والثالثة؛ مبدأ الإقدام على الأهوال والشوق إلى التسلط والترفع وهي القوة الغضبيّة والسبعيّة والنفس اللوّامة. وتحدث من اعتدال الحركة للأولى الحكمة وللثانية العفة وللثالثة الشجاعة. فالحكمة عنده معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة وهي العلم النافع المعبر عنه بمعرفة النفس ما لها وما عليها المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:269).

ولا يخرج عما نقول قولهم: إن الحكمة وليدة العقل ومن أثمن نتاج التمييز والتفكير وهي زبدة العلم والاختبار، فقد قالوا كل شيء محتاج إلى العقل. والعقل محتاج إلى التجارب وأن الحكمة حالة للنفس يدرك فيها الصواب من الخطأ في الأفعال الاختباريّة.[34]

---

31 الرازي، **التفسير الكبير**، ج25، ص146.

32 الرازي، **التفسير الكبير**، ج25، ص146.

33 التفتازاني، **شرح التلويح على التوضيح** (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ج2، ص48.

34 الإمام الغزالي، **إحياء علوم الدين** (بيروت: دار المعرفة، د. ت) ج3، ص54.

ولهذا وجب على المؤمن أن تعدّ الحكمة ضالته وأن يسعى جهده لاكتسابها امتثالاً للحديث الشريف: "الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها" رواه الترمذي.[35]

ويفهم هذا المعنى أيضاً من الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال النبي ﷺ: "لا حسد إلاّ في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلّطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها".

وقد يكون الراغب الأصفهاني[36] قد استنبط من هذا الحديث الشريف الرأي القائل بأن الحكمة: هي الاقتداء بالخالق في السياسة بقدر طاقة البشر وذلك أن يجتهد لأن ينزه علمه عن الجهل وعدله عن الظلم وحلمه عن السفه.

وخلاصة ما نريد التوصل إليه أن الحكمة التي وردت رديفة للكتاب في القرآن الكريم أو جاءت منفردة تعني النافذة البشريّة المهتديـة بالبصيرة الإلهيّة. وهي العقل المبصر الواعي الذي له قدرة التأمل والتركيب والاستقراء والاستنباط ووضع كل شيء موضعه، وإيتاء كل ذي حق حقه. ومن هنا يفهم ما يقوله الفقهاء من أن العقل مناط التكليف. فحيثما تكون الحكمة تكون الشريعة. وحيثما تكون الشريعة تكون الحكمة. ذلك أن الحق كما قال ابن رشد لا يضاد الحق بل يوافقه. وعلى هذا يمكن تأصيل كثير من أحكام وآراء الفقهاء بالحكمة دون الحاجة إلى خوض صراع فكري فقهي حول القياس والاستحسان والمصلحة مثلاً. هذا بعض ما أراه بشأن الحكمة وأصالة مرجعيتها في الفقه والفكر والقانون.

وفي مدارسة مع الشيخ الغزالي يقول:[37] الحكمة وردت في القرآن في نحو من عشرين موضعاً تقريباً مفردة أو مع الكتاب "الكتاب والحكمة". من قال إن الحكمة هي السنة النبوية فهو مخطئ لأنك تقرأ قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ (آل عمران:48). كيف تكون الحكمة هي السنة النبوية والكلام هنا يقصد عيسى ابن مريم عليه السلام. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ (لقمان:12). ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

---

35 الشيخ محمد عبده، **الإسلام والنصرانية**، ص81.

36 الراغب الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، ص84.

37 محمد الغزالي، **كيف نتعامل مع القرآن** (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1413هـ/ 1992م)، ص102-103.

فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ (الإسراء:39). ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء:54). ففي نحو عشرة مواضع في القرآن لا يمكن أن تكون الحكمة هي السنّة النبويّة، بل هي ما يستفاد من التعاليم القرآنيّة أي وضع الأمر في موضعه. وهنا أقول: إن الميزان هو الناحية العمليّة والحكمة هي الناحية النظريّة في ذلك. مجموعة الآيات التي وردت فيها الحكمة والميزان تعطينا منهجاً. إن الأمة لابدّ أن يكون لها من الرؤية القرآنية التي تستنبطها أو تستدركها من مجموع الآيات سياسة قرآنيّة: "كيف تحكم الشعب؟ وكيف تنزلها على واقع الناس أي كيف ينزل الفكر القرآني على واقع علمي؟

## ثانياً: الحكمة والفلسفة:

يتفق مؤرخو الفلسفة على أن كلمة الفلسفة مشتقة من الكلمة اليونانيّة فيلوسوفي وهي مركبة من كلمتين "فيلو" ومعناها "محبة" و"سوفي" ومعناها "الحكمة".[38] ومعنى سوفوس الحكيم. وكانت هذه الكلمة تطلق على كل من كمل في شيء؛ عقلياً كان أو مادياً؟ فأطلقوها على الموسيقي، والطاهي، والبحار، والنجار.[39] ولكن هذا المعنى العام ما لبث أن تحول إلى معنى في غاية السمو والكمال فينسب إلى فيثاغورس أنه قال: "الحكمة لله وحده، وإنما للإنسان أن يجدّ ليعرف، وفي استطاعته أن يكون محباً للحكمة، تواقاً إلى المعرفة، باحثاً عن الحقيقة". وكذلك نسب إلى سقراط أنه قال: "لا أسميهم حكماء لأن هذا الاسم عظيم لا يتصف به إلاّ الله وحده. وإنما أسميهم محبي الحكمة، فالحكمة نوع كامل من العلم لا يليق إلاّ بالله وحده. وما ذاك إلاّ العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه في الأمر نفسه.[40] ولهذا عبر علماء الفلسفة الإسلاميّة عن الفلسفة بالحكمة وعرفوها بأنها علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشريّة. وعرفوها أيضاً بأنها علم بأحوال أعيان الموجودات على ما هي عليه في نفس الأمر.[41] وذكر العلامة ابن خلدون:[42] "إن

---

38 عبد المنعم الحفني، **الموسوعة الفلسفية**، (بيروت: دار ابن زيدون، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط1)، ص386.

39 المصدر السابق، ص17.

40 المصدر السابق، ص17.

41 العلامة صديق بن حسن القنوجي، **أبجد العلوم**، ج1، ص245، وما بعدها، وانظر: **دائرة المعارف الإسلاميّة**.

42 ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، (القاهرة: دار نهضة مصر، د. ت)، ج1، ص425.

العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً هي على صنفين: صنف طبعي للإنسان يهتدي إليه بفكره؛ وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه. والأول هي العلوم الحكميّة الفلسفيّة. وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدي بمداركه البشريّة إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان وذو فكر. والثاني هي العلوم التقنية الوضعيّة وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي". فالحكمة كما يرى ابن خلدون مجالها العقل البشريّ بخلاف العلوم النقليّة التي مجالها الخبر عن الواضع الشرعيّ.

ومنهم من جعل الحكمة اسماً لاستكمال النفس الإنسانيّة في قوتها النظريّة أي خروجها من القوة إلى الفعل في الإدراكات التصوريّة والتصديقيّة بحسب الطاقة البشرية.[43] وتنقسم الحكمة إلى قسمين هما: الحكمة العلميّة، والحكمة النظريّة.[44] الحكمة النظريّة، هي التي تتعلق بالأمور التي تعلم لتمام استقامة الأفهام والأعمال أما الحكمة العمليّة فهي ما تتعلق بالأعمال. ولكل منهما ثلاثة أقسام:

ذلك أن الحكمة العمليّة، إما علم بمصالح شخص بانفراده ويسمى تهذيب الأخلاق ويسمى الحكمة الخلقيّة أيضاً. وفائدتها تنقيح الطبائع وتزكية الأنفس، وأما علم بمصالح جماعة متشاركة في المنزل والأسرة. ويسمى علم تدبير المنزل. والحكمة المنزليّة، وأما علم بمصالح جماعة مشتركة في المدينة أي الدولة ويسمى السياسة المدنيّة.

وأما الحكمة النظريّة، فهي إما علم بأحوال ما لا يفتقر في الوجود الخارجيّ والتعقل إلى المادة وهو العلم الإلهي "الإلهيات". وأما علم بأحوال ما يفتقر إلى المادة في الوجود الخارجيّ دون التعقل كالرياضيات. وهو العلم الرياضيّ والتعليميّ. وأما علم بأحوال ما يفتقر إلى المادة في الوجود الخارجيّ والعقل كالإنسان فهو العلم الطبيعيّ.

ويقترب من هذا التقسيم ما ذكرناه من أن الحكمة عندهم هي العلم أو فعل الصواب. ولا يمكن خروجها عن هذين المعنيين لأن كمال الإنسان في شيئين: أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به. فالمرجع بالأول إلى العلم والإدراك المطلق

---

43 **أبجد العلوم**، ج2، ص247.

44 راجع الشيخ عبد القادر السفندجي، **تهذيب الكلام**، مخطوط في مكتبتنا الخاصة.

وبالثاني إلى فعل العدل والصواب.[45]

هذا وقد بالغ الإمام الرازي رضي الله عنه في تنزيل هذه التقسيمات الفلسفيّة على معان قرآنية. ومما ذكره في الإشارة إلى الحكمة العمليّة والنظريّة عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة:269) فقال: "فحكى عن إبراهيم عليه السلام قوله ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ (الشعراء:83) وهو الحكمة النظريّة ﴿وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء:83) وهو الحكمة العملية. ونادى موسى عليه السلام فقال ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ (طه:14) وهو الحكمة النظريّة. ثم قال ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ (طه:14) وهو الحكمة العمليّة وقال عن عيسى عليه السلام إنه قال ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم:30). وكل ذلك للحكمة النظرية ثم قال ﴿وَأَوْصَانِي بالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم:31) وهو الحكمة العملية. وقال في حق محمد ﷺ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد:19) وهو الحكمة النظرية ثم قال ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (محمد:19) وهو الحكمة العملية. وقال في جميع الأنبياء ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ (النحل:2) وهو الحكمة النظرية. ثم قال ﴿فَاتَّقُونِي﴾ وهو الحكمة العملية. والقرآن هو من الآية الدالة على أن كمال حال الإنسان ليس إلاّ في هاتين القوتين".[46] وفيما يتعلق بالبعد الفلسفي لوجود الإنسان وعلاقة الحكمة به، ذكر ابن رشد أن هنالك نظاماً يعم الكون ذلك أن كل موجود له غاية تخصه وأن ذلك الموجود يبحث عن تلك الغاية ويسير إليها "كل ميسّر لما خلق له"، ويحقق الكمال ببلوغها. ومما لاشك فيه أن ما يميز الإنسان عن غيره، ويختص به هو أنه كائن واعٍ ومسؤول يسمونه النفس الناطقة فيسعى الإنسان للكمال وعياً وإدراكاً. وهذا يتشعب إلى ناحيتين: ناحية عملية ـ أي الفضائل العملية ـ حيث يتصرف تصرفاً خاصاً بموجب ما يملك من وعي وإدراك. وناحية عملية ــ أي الفضائل النظرية ــ حيث يكسب علوماً وآراءً مختلفة.

وخلاصة ما يرمي إليه أن الإنسان كأي موجود له غاية تخصه ويسير إليها ويحقق

---

45 الرازي، **التفسير الكبير**، ج7، ص73.

46 الرازي، **التفسير الكبير**، ج7، ص73.

الكمال ببلوغها وهي الحكمة. وتعني استكمال النفس بالوعي والإدراك عملياً ونظرياً، سلوكاً ومعرفة.

هذا وقد وضع ابن رشد كتاباً فريداً في موضوعه متيناً في عرضه، رصيناً في لغته سماه: "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال". أوضح فيه مدى علاقة الحكمة بالعلم الحق والعمل الحق أي الحكمة النظرية والحكمة العملية. والعمل الحق كما يوضحه ابن رشد هو امتثال الأفعال التي تفيد السعادة وتجنب الأفعال التي تفيد الشقاء والمعرفة بهذه الأفعال هي التي تسمى العلم العملي.[47]

ولما كان الحق أمراً ثابتاً وقد تقرر أن الشريعة الإسلامية هي شريعة حقة، فإننا نعلم قطعاً أن النظر البرهاني الذي تكون المقدمات فيه يقينية وهو الحكمة سيلتقي مع الشريعة ويتصل بها ومن هذا قال ابن رشد:[48] "إذا كانت الشريعة حقاً داعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق، فإننا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له.

فالحكمة عند ابن رشد هي الموقف العقلاني المتعلق بحقائق الأشياء لاستكمال الفضائل العمليّة والنظريّة.

وأما حكمة الإشراق فهي من العلوم الفلسفية بمنزلة التصوف من العلوم الإسلامية، وبيان ذلك أن سعادة الإنسان العظمى هي معرفة الله تعالى. ولهذه المعرفة ـ كما يقولون ـ طريقان:

1. طريق النظر والاستدلال.

2. طريق المجاهدة والرياضة والعبادة وإذا التزم السالكون للطريقة الأولى ملة من ملل الأنبياء فهم المتكلمون وإلاّ فهم الحكماء المشاؤون.

وأما السالكون لطريق الرياضة التعبديّة إن وافقوا أحكام الشريعة فهم الصوفيّة وإلاّ فهم الحكماء الإشراقيون.

وحاصل الطريقة الأولى[49] الاستكمال بالقوة النظريّة والترقي في مراتبها الأربعة

---

47 انظر ابن رشد، **فصل المقال**، مرجع سابق، ص13-14.

48 **فصل المقال**، ص35.

49 صديق بن حسن، **أبجد العلوم**، ج2، ص248.

أعني مرتبة العقل الهيولاني والعقل بالفعل والعقل بالملكة والعقل المستفاد والأخيرة هي الغاية القصوى لكونها عبارة عن مشاهدة النظريّات التي أدركتها النفس بحيث لا يغيب عنها شيء. ولهذا قيل: لا يوجد المستفاد لأحد في هذه الدار بل في دار القدر، اللّهم إلاّ لبعض المتجرّدين عن علائق البدن والمنخرطين في سلك المجردات.

وحاصل الطريقة الثانية الاستكمال بالقوة العمليّة والترقي في درجاتها التي أولها تهذيب الظاهر باستعمال الشرائع والنواميس الإلهيّة، وثانيهما؛ تهذيب الباطن عن الأخلاق الذميمة. وثالثها؛ تجلّي النفس بالصور القدسيّة الخالصة عن شوائب الشكوك والأوهام. ورابعها؛ ملاحظة جمال الله سبحانه وجلاله وقصر النظر على كماله والدرجة الثالثة من هذه القوة وإن شاركتها المرتبة الرابعة من القوة النظريّة فإنها تفيض على النفس منها صور المعلومات على سبيل المشاهدة كما في العقل المستفاد وبمثل هذا يقدم الشيخ شمس الدين السهروردي كتاب حكمة الإشراق لشيخ الإشراقيين الشيخ شهاب الدين السهروردي إذ يقول:[50] "وإذا تلخص لنا أن السعادة منوطة بالعلوم الحقيقيّة دون غيرها فنقول إن العلوم الحقيقية تنقسم إلى قسمين: ذوقية كشفية وبحثية نظرية: فالقسم الأول يعني به معاينة المعاني والمجردات مكافحة لا بفكر ونظم دليل قياسي، أو نصب تعريف حدي أو رسمي بل بأنوار إشراقية متتالية متفاوتة بسلب النفس عن البدن وتتبين معلقة تشاهد تجردها وتشاهد ما فوقها مع العناية الإلهية. وهذه الحكمة الذوقية قلّ من يصل إليها من الحكماء ولا تحصل إلاّ للأفراد من الحكماء المتألهين الفاضلين.

ويقول الشيخ السهروردي في مقدمة كتابه حكمة الإشراق:[51] "فمن أراد البحث وحده فعليه بطريقة المشائين فإنها حسنة للبحث وحده محكمة وليس لنا معه كلام ومباحثة في القواعد الإشراقيّة، بل الإشراقيون لا ينتظم أمرهم دون سوانح نوريّة فإن من هذه القواعد ما يبتني على هذه الأنوار".

وقد كان الشيخ الإسكندراني[52] أفلوطين المولود 205م في أسيوط بمصر أول من

---

50 السهروردي، **حكمة الإشراق**، ص5.

51 المصدر السابق.

52 انظر أحمد أمين، وزكي نجيب محمود، **قصة الفلسفة اليونانية**، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط8، ب. ت)، ص267-269.

أسس فلسفة الإشراق مستلهماً من فكرة المُثل الأفلاطونيّة المعنى الدينيّ لها، وكان يرى أن العالم كثير الظواهر دائم التغير وهو لم يوجد بنفسه، بل لابدّ له من علة سابقة هي السبب في وجوده، هذا الذي صدر عنه العالم واحد غير متعدد لا تدركه العقول ولا تصل إلى كنهه الأفكار وهو أزلي أبدي وليس هو في زمان ولا في مكان. ولأنه واحد لا يمكن أن يصدر عنه العالم المتعدد لذلك لجأ إلى فكرة الفيض إذ قال إن تفكير الله في نفسه نشأ عنه فيض وهذا الفيض صار هو العالم وكما يبعث اللهب ضوءاً والثلج برداً فكذلك انبعث من الله شعاع كان هو العالم. وهذه هي أسس النظرية الفيضية التي تسللت بدهاء إلى أدبيات التصوف، وشطحات بعض المتصوفة. ولسنا هنا بصدد التفصيل فيها، أو تقويمها ويكفي أن نشير إلى أن النظريّة الفيضيّة ترى كما قال الفارابي[53] إن العقل الفعّال (السماء الدنيا) وهو "واهب الصور" أيضاً يشرق دائماً وباستمرار الحقائق على العالم ولكن الأنفس ذات المخيلة الصافيّة النقيّة تتلقى هذه الحقائق وتعبّر عنها بلغة بشرية تجعلها في متناول حواس الآخرين، ومخيلتهم حيث يوجد صدى ضئيل لهذه الحقائق. أما الحقائق في ذاتها فإنها تفوق هذا النطاق المادي المحسوس أعني اللغة التي استخدمت للتعبير عنها. ويستطيع الفيلسوف وحده بفضل المنطق والتأمل العقلي أن يرتقي حتى مصدر هذه الحقائق أعني العقل الفعال".

وواضح أن الفارابي يمزج هنا بين الحكمتين المشائيّة والإشراقيّة بغيةً الوصول إلى الحقائق فعلى المسلم الوعي بما قيل قديماً أو يقال حديثاً في وصف الحقيقة لا سيما ما يتعلق بتفسير القرآن، فإن أي تفسير لا يتفق مع البيان المحمدي، أو يتعارض مع الفهم العربي السليم للقرآن الكريم فهو ردّ والله أعلم.

## ثالثاً: الحكمة عند الأصوليين

كانت الحكمة في القرآن الكريم حقاً يعرف لذاته، وخيراً يعرف للعمل به، وموقفاً عقلانياً يذعن له كل ذي ضمير ودين وعقل، يتسم بالكمال المحدود للبشر، وبالإتقان الذي لا يرى فيه عوج.

---

53 الفارابي، **آراء أهل المدينة الفاضلة**، تحقيق ألبير نصري نادر، (بيروت: دار المشرق، ط5، 1986م)، ص7 وما بعدها.

وكانت الحكمة في الفلسفة بحثاً عن حقائق الأشياء بقدر الطاقة البشرية، وإشراقة إلهية في نفوس العابدين ممن تخلّوا عن الماديات، وتحلّوا بالمعاني الروحيّة، فصقلوا أنفسهم بالمجاهدات. ففازوا بالعلم اللدني ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف:65).

أما الحكمة عند الأصوليين فتختص بالجانب التشريعي العملي أعني الحكمة العملية في الحكم الشرعي ونعني بها الخير الذي يحققه الحكم الشرعي للفرد أو المجتمع لأن الشارع حكيم، والحكيم لا يفعل إلاّ ما هو خير ومصلحة ولا نعني بهذا ما يدعيه المعتزلة من أن الأصلح واجب عليه تعالى بل ما نرجحه من أن أفعال الله معللة بمصالح العباد. وصدق من قال: من أنكر التعليل فقد أنكر النبوة ذلك أن بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لاهتداء الخلق. ومع أن الحكمة بالمعنى الأصولي غير منضبطة بشكل كلي فإنها محسوسة في كل حالة جزئيّة. ولشبهة عدم الانضباط فيها ابتدعوا فكرة العلة للحكم الشرعي وقالوا: إن الأحكام تدور مع عللها لا مع حكمها وجوداً وعدماً. ولكن العلة المقبولة هي العلة المشتملة على حكمة مقصودة للشارع في شرعة الحكم فالعلة الحقيقة هي المصلحة وهي الحكمة.

أما الفرق الشكلي فهو أن العلة هي الوصف الظاهر المنضبط المناسب لشرعيّة الحكم والمعتبر منطقة الحكمة الباعثة على تشريع الحكمة والذي بُني عليه الحكم وجوداً وعدماً. أما الحكمة فهي المصلحة المقصودة للشارع من تشريع الأحكام، وهي تجلب نفعاً أو تدفع ضراً. وهي قد لا تكون منضبطة. قال العلامة صدر الشريعة:[54] والحكمة المجرّدة لا تعتبر في كل فرد لخفائها وعدم انضباطها بل في الجنس فيضاف الحكم إلى وصف ظاهر منضبط يدور معها أي يدور الوصف مع الحكمة أو يغلب وجود الحكمة عند الوصف. والمراد أن ترتب الحكمة على الوصف يكون محصلاً للحكمة دائماً أو في الأغلب كالسفر مع المشقة أي ليس المراد أن المشقة هي الحكمة بل هي دفع الضرر ودفع الضرر إنما يتحقق في صورة وجود الضرر، ووجود الضرر لا يتحقق إلاّ أن تكون المشقة موجودة. ثم المشقة غالبة الوجود في السفر فترتب الحكم وهو الرخصة على الوصف وهو السفر يكون محصلاً التي هي دفع الضرر في الأغلب".

---

[54] انظر صدر الشريعة، **شرح التوضيح عن التنقيح**، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ج2، ص63-64.

فالعلة الحقيقيّة التي تسبب الحكم هي الحكمة. أما التفرقة بين العلة والحكمة فهي حصيلة الفن الأصولي، لم تكن موجودة في العهد الأول. بل أننا نجد أن العلل الواردة في الكتاب الكريم هي في حقيقتها لا تعدو أن تكون مصالح وحكماً سواء كانت منضبطة أو غير منضبطة. وأن معظم اجتهادات عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من كبار الصحابة والتابعين كان معللاً بالحكمة كما هو الحال في إسقاط سهم المؤلفة قلوبهم، وتوزيع الأراضي الخراجيّة على الفلاحين لا على الغانمين. لذلك أرجح أن عدول الأصوليين عن التعليل بالحكمة إلى التعليل بالأوصاف الظاهرة المنضبطة ليس إبطالاً للتعليل بها، وإنما هو من أجل الضبط.

وجاء في كتب الأصول[55] أن من شروط العلة أن تكون وصفاً ظاهراً منضبطاً في نفسه حتى تكون ضابطاً للحكمة لا حكمة مجرّدة وذلك لخفاء الحكمة كالرضا في التجارة. ذلك أن حكمة التجارة هي التراضي. وقد أنيطت التجارة (البيع) بصيغ العقود لا بالرضا لأن الصيغ (بعت ـ اشتريت) ظاهرة منضبطة، أو لعدم انضباط الحكمة كالمشقة. فإن لها مراتب لا تحصى وتختلف باختلاف الأشخاص اختلافاً عظيماً... فنيطت بالسفر فلو وجدت حكمة مجرّدة وكانت ظاهرة بنفسها منضبطة بحيث يمكن اعتبارها ومعرفتها جاز اعتبارها وربط الحكم بها على الأصح لأنا نعلم قطعاً أنها هي المقصودة للشارع واعتبر المظنة لأجلها لمانع خفائها واضطرابها. فإذا زال المانع من اعتبارها جاز اعتبارها قطعا.

وواضح أن القصد من الانضباط هو تيسير الجمع بين الحالة المستجدة وبين الحال المنصوص عليها في العلة المفهومة المنضبطة التي دعت إلى الحكم والحكمة لخفائها قد يصعب الاستناد إليها للجمع بين الحالتين.

وأرى أن هذا التصور الأصولي خاص بالمعاني الجزئية أما المعاني الكلية ونعني بها مقاصد الشريعة وروح الشريعة العامة، فإني لا أشك في أنها هي الحكمة بمعناها العام وهي منضبطة في إطارها العام لذلك أقول: "إذا كانت هذه هي حال الحكمة في الأصول في الكتاب المجيد، فأي ضير في أن تكون الحكمة ببعدها العقلي، وبمضمونها

---

55 انظر ابن الحاجب، **منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1405هـ/ 1985م)، ص169.

المتفق مع الميل الإنساني للعدل والمساواة والملائم مع روح الشريعة هي المعتمد في القياس، وتوسيع مضامين النص والاستنتاجات الفقهية لا سيما في الحالات التي لم يرد بشأنها نص من كتاب أو سنّة.

ولو تتبعنا الفتاوى الفقهيّة للأئمة الكبار لوجدنا أنها تستند في الحقيقة إلى الحكمة المعقولة في ضوء مبادئ الشريعة، وإن اختلفت مصادرها مما عرفت بالمصادر التبعية. فقد ثبت أن أحكام الله معللة بالحكم والمصالح. وأن الحكمة مقرونة بالكتاب الكريم وأن أي حكم اجتهادي لا يحقق الحكمة بعيد عن الشرع. ومما يعضد هذه الفكرة أن الأحناف يهملون القياس الذي لا يحقق الحكمة ويلجأون بدلاً عنه إلى الاستحسان الذي أرى أنه مظهر للحكمة، وإلاّ فلا يكون الاستحسان إلاّ تشريعاً بالهوى كما يصفه الإمام الشافعي رضي الله عنه. ولسنا هنا بصدد التفصيل وهي في الحقيقة عبارة عن الأحكام الثابتة في جميع الملل والأديان كما ذكر الرازي وأشار إليها ابن رشد وهي المبادئ التي يفرضها العقل وطبيعة الأشياء ويخضع لها كل ذي لب وعقل وضمير سليم.